غزو الزبارة والبحرين

كان آل خليفة حكاماً على البحرين والزبارة ، وفي سنة ١٢١٥ هـ . استولى سلطان بن أحمد ، حاكم مسقط ، على البحرين دون قتـــال وأخذ الشيخ محمد – شقيق حاكم البحرين والزبارة الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة – إلى مسقط رهينة .

وفي سنة ١٢٢٥ هـ . توفي الشيخ محمد ، فما عاد آل خليفة يخشون انتقام حاكم مسقط منه ، فاستنجدوا بالإمام سعود وقاتلوا المسقطيين وأجلوهم عن البحرين. ويقول بعض المؤرخين : إن إجلاء سعود لجيش مسقط عن البحرين هو السبب الأول للخصومة بين حكام مسقط وحكام السعودية .

ويزعم النبهاني إن الإمام سعود أمر عامـله ابن عفيصان أن يمنع آل خليفة من الإستيلاء على الحكم والسلطة في البحرين ، فعـاد آل خليفة إلى الزبارة وأصبح ابن عفيصان أميراً على البحرين ، ومقر إقامته في « قلعة الديوان » .

ويقول ابن بشر ، في أخبار سنتي ١٢٢٤ و ١٢٢٥ هـ . إن الإمام سعود بلغته مخالفات وقعت من آل خليفة وخاف أن يقع أكبر منها فأرسل اليهم أحد عماله وأجبرهم على المجيء إلى الدرعية ،فلما وصلوها (قرأ عليهم سعود ما حدث منهم ثم اعتقل رؤساءهم ، وردَّ أبناءهم وبقية الرعية إلى بلادهم ، وكان سعود لمـا قبض عليهم أخذ جميع خيلهم ونجائبهم وغير ذلك من الشوكة التي لهم في البحرين

والزبارة ، ثم أمر فهد بن عفيصان أن يعبر إلى البحرين ضابطاً له وجعله بيت مال) .

ما هي المخالفات التي صدرت عن آل خليفة فأثارت غضب الإمام سعود ؟

لم يوضح لنا ذلك ابن بشر ، ولكن مؤلف اللمع يزعم إن الإمام سعود قال لمشايخ آل خليفة :

– أريد أن أرسل بعض العلماء إلى جزيرة البحرين ، يعلّمون الناس الدين ويفهمونهم كيفية السلوك فيه ، ولا بدّ من ذلك .

قالوا : نحن نعلمهم ، إذ عندنا من هو ماهر في الدين !

قال : لا بدّ من إرسال علماء من نجد، فإنهم أثبت منكم في معالم التوحيد !

فرضوا بذلك .

وجاء علماء من نجد إلى البحرين ، فرأوا أن آل خليفة يظلمون أهل البحرين وهم من العتوب ،فشجعوا الأهالي على إرسال مندوبين عنهم إلى الدرعية يشكون ويتظلمون ، فلما استمع سعود إلى شكاواهم أحبّ أن ينصفهم فنزع عنهم أيدي آل خليفة .

استعادة البحرين :

كان غرض سعود من استبقاء كبار آل خليفة رهائن عنده في الدرعية أن يمنع أقرباءهم وأنصارهم في البحرين من الفتنة والتمرد،ولكن الأبناء والأقرباء لم يكترثوا لما قد يحل بآبائهم وعمومتهم الذين في الدرعية،فهربوا بنسائهم وأموالهم من الزبارة والتجأوا إلى صاحب مسقط – عدوهم السابق – وطلبوا منه النصرة. فأمدّهم بمراكب كثيرة فجاؤوا إلى الزبارة ليلاً وأخرجوا منها (بقية رجالهم ، وما فيها من المتاع والمال .. ثم ساروا إلى البحرين ، ونازلوا فهد بن عفيصان والمرابطة الذين في قصر المنامة، وهم نحو ثلاثمائة رجل ، فحصروهم.. أياماً ، ثم أخرجوهم بالأمان على دمائهم ، فأمسكوا منهم فهد بن عفيصان وأمسكوا معه ستة عشر رجلاً، واعتقلوهم رهينة في رجالهم الذين في الدرعية، وتركوا الباقين) .

ولما بلغ ذلك سعود دعـا اليه كبار آل خليفة الذين عنده فالتمسوا منه أن يطلق سراحهم ليذهبوا الى البحرين ويقنعوا أبنـاءهم بالسمع والطاعة لسعود ، ففعل (وارتحلوا من الدرعية ، وبعث معهم سعود شوكة من الجيش ، فلما وصلوا الى ناحيتهم طلبوا من بنيهم الموافقة على مـا بايعوا عليه سعود ، فأبوا عليهم ، فرجعوا الى الدرعية ، وأقـاموا فيها حتى رجع سعود من الحج) ، وكان ذلك سنة ١٢٢٦ هـ . ، فأذن سعود لآل خليفة بالرجوع الى بلادهم .

وقابل آل خليفة صنيع سعود بمثله ، فأطلقوا الرهائن المحتجزين في البحرين ، وعلى رأسهم ابن عفيصان .

رواية النبهاني :

يقول النبهاني إن آل خليفة أرسلوا سراً الى ابن أختهم الشيخ عبـد الرحمن آل راشد أن (يحتال في أخذ البحرين ، فاستنجد بأمير مسقط ثم بحاكم فارس « جبارة » وجَنّد بمساعدتها المالية وغيرها جنداً .. ثم أخبر آل خليفـة الذين في الزبارة بما فعله..فخرجوا واجتمعت جموعها وحاربوا ابن عفيصان وأخرجوه هو وقومه من البحرين ، فسار ابن عفيصان الى قطر ، ونزل عند رحمة بن جابر الجلاهمة ، في موضع يقال له الحُوير .)

ولما بلغ سعود بن عبد العزيز ما كان .. تذاكر مع آل خليفة المعتقلين عنده الأمر ، فذهب بعضهم الى البحرين فلمـا وصلوها أظهر الشيخ عبد الرحمن ، بإشارة من آل خليفة ، الجفاء والغضب ، فقال له رجال سعود : كيف يتجرأ العيال على أخذ البحرين وآباؤهم في قبضة الإمام ؟

فقال لهم : دونكم والعيال ..

فقال شبان آل خليفة : إنهم أخذوا البحرين لأنفسهم ، ولا حـاجة لهم بآبائهم وعمومتهم ..

فغضب رجال سعود وقـالوا : لو يمكن للخف والحافر أن يطأ البحرين لنثرناها حصاة حصاة .

فقال الشيخ عبد الرحمن : لو يمكن لغبيت الجابري – أي سفنه – أن تطلّ على الدرعية لجعلنا عاليها سافلها ولَما تركنا سعود ينام بها ليلة سوداء ..

فلما رجع رجال سعود وأخبروا الإمام بما جرى أيس من البحرين ، وأطلق سراح آل خليفة المعتقلين عنده .

بين آل خليفة ورحمة :

صمّم آل خليفة على الثأر لأنفسهم من ابن عفيصان ومن رحمة بن جابر الذي ساعده عليهم ، فذهبوا الى الخُوير حيث يقيمان ..

رأى رحمة قوة سفن آل خليفة ، فنصح لابن عفيصان بعدم مهاجمتها ، فظنّ ابن عفيصان به الخوف ، فأمر رجلاً من بني قومه بأن يتحرش للحرب بهذا الشعر النبطي :

(لا خير في رجل يجرُّ جريرة وإذا تضايق دربها خلاّها)

فغضب رحمة .. وذهب بسفنه للقتال .. وانكسر في المعركة البحرية .. وأُصيب بجراحات في يده اليمنى .. [1]

وقد تحدث ابن بشر عن المعركة بين آل خليفة وبين ابن عفيصان ورحمة ، في أخبار سنة ١٢٢٦ هـ . فقال ان مقتلة عظيمة في البحر وقعت بين عشائر آل خليفة وبين طوارف المسلمين الذين في ناحيتهم ، وهم : (رحمة بن جابر بن عذبي ، أمير خوير حسان المعروف ، وأبا حسين ، أمير الحويلة – البلدة المعروفة في قطر – وابراهيم بن عفيصان ، أمير شوكة المرابطة من أهل نجد وغيرهم .

---

(١) يقول النبهاني إن رحمة ازداد غيظاً واشتعلت نار الحسد والبغضاء في نفسه على آل خليفة ، فصمم على قطع طرق البحرين بالنهب والقتل ، من الباعة والتجار .. ولما أخفق في عمله توجه الى إمام مسقط وأغراه بأخذ البحرين ..

وهكذا جرت – عام ١٢٣٠ هـ . – معركة بين مسقط والبحرين انكسر فيها إمام مسقط السيد سعيد .

ثم أعادت مسقط الحرب ، فتم بينها وبين البحرين صلح ، يدفع البحرانيون بموجبه مبلغاً من المال سنوياً الى إمام مسقط .

وذلك أن هؤلاء سار بعضهم على بعض في السفن ، فوقعت الملاقاة في البحر قرب البحرين ، وذلك في شهر ربيع الأول ، فوقع قتـال شديد وكثرت القتلى بين الفريقين ، ثم اشتعلت النار في السفن وجبخانها ، ومات بينهم خلق كثير قتلاً وحرقاً وغرقاً، فاحترقت السفن بما فيها، واحترق لابن جابر و (أبا حسين) ومن معهم من المسلمين سبعة مراكب ، واحترق لآل خليفة نحو ذلك .

وقتل من أهل البحرين وأتباعهم أكثر من ألف رجل ، منهم دعيج صاحب الكويت ، وكان من أعوان أهل البحرين ، وقتل راشد بن عبد الله بن خليفة وغيرهم من الأعيـــان ، وقيل ان الذي هلك من البحرين وأتباعهم ألف وأربعمائة رجل .

وقتل من المسلمين نحو مائتي رجل ، منهم (أبا احسين) أمير الحويلة [1] .

(١) يقول النبهاني ان رحمة لم يتعظ وظل مصمماً على الثأر .. وفي سنة ١٢٤٢ هـ. دخل القطيف بسفينة له تسمى (غطروشة) ، وقد وقعت معركة بينه وبين سفن آل خليفة وكان رحمة قد كف بصره في آخر عمره ، فجعل يسأل قومه عن السفن الهاجمة عليه وعن رئيسها فيخبرونه ، حتى لاصقته سفينة الشيخ أحمد بن سلمان ، فتجالد الفريقان بالسيوف واشتد بينهم الضرب والطعان ، وكان بجانب رحمة ابن له صغير ، وعبده المسمى « طرار » واقف على رأسه ، حتى وصل أعداؤه الى الصاري ثم الى الحاشية ثم الى سطح مؤخر السفينة ، وكان حينئذ جالساً في خزانة السفينة ، فأخذ ابنه وجعله في حجره ، ثم عمد الى نار في رأس النارجيلة التي كان يشرب منها الدخان فألقاها في ذخيرة البارود التي كانت تحته ، فانفجرت السفينة بهم ، وقتل هو وابنه ومن معها ، متأسياً بقول الزباء : بيدي لا بيد عمرو .

وتسمى هذه الوقعة : ذبحة الجلاهمة .